٣ - مملكة الحيرة فى أيامها الاخيرة *

بقلم الاستاذ يوسف بك غنيم
وزير مالية العراق الأسبق

وفى زوال دولة المناذرة قال ابن بقيلة : (١)

أبعد المنذرين أرى سواماً ... تروّح بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى ... قلوصاً بين مرة والحفير
فصرنا بعد هلك أبى قبيس ... كجرب الممز فى اليوم المطير
تقسمنا القبائل بعد معد ... علانية كأيسار الجزور
وكنا لا يرام لنا حريم ... فنحن كفرة الضرع الفخور
تؤدى الخرج بعد خراج كسرى ... وخرج من قُرَيظة والنّضير
كذاك الدهر دولته سجال ... فيوم من مساءة أو سدور

وقال القعقاع بن عمرو فى أيام فتح الحيرة : (٢)

سَقَى اللهُ فَتْلَى بالفرات مقيمة ... وأخرى بأثباج النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً ... وبالثنى قَرَّنّا قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت ... على «الحيرة» الروحاء إحدى المصارف
حَطَطْنا مناخ منها وقد كاد عرشهم ... يميل به فعل الجبان المخالف
رمينا عليهم بالقبول وقد رأوا ... غبوق المنايا حول تلك المحارف
صبيحة قالوا نحن قوم تنزلوا ... إلى الريف من أرض العريب المقانف

كان الدهاقين يتربصون بخالد ، وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما استقام مابين أهل الحيرة وبين خالد واستقاموا له ، أتته دهاقين الملطاطين وصالحوه .(٣)

واتخذ خالد بن الوليد الحيرة منزله سنة ، وهو يصعد ويصوب قبل خروجه إلى الشام (٤) ؛ وكان أبو بكر قد عهد إلى خالد أن يأتى العراق من أسفل منها ، وإلى عياض أن يأتيه من فوقها ، وأيهما سبق إلى الحيرة ، فهو أمير على الحيرة ؛ وكأنى بالفاتحين المسلمين

---

* راجع « المقتطف » عددى ديسمبر ١٩٣٢ ويناير سنة ١٩٣٣

(١) الطبرى ٤ : ١٣ (٢) الطبرى ٤ : ١٥ (٣) كذلك ص ١٧ (٤) كذلك ص ١٨

قد اتخذوا الحيرة قاعدة حربية فى فتح العراق ؛ وبعد فتح الحيرة ، فتح المسلمون الأنبار وعين التمر ؛ وبعد سفر خالد إلى الشام ، أقام المثنى بن حارث الشيبانى بالحيرة مع عمرو بن حزم الأنصارى ، ووضع المسلحة ، وأذكى العيون ؛ واستقام أمر فارس بعد مسير خالد من الحيرة بقليل ، وذلك سنة ثلاث عشرة ، على شهر يزان بن اردشير بن شهر يارسابور ، فوجه الى المثنى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذويه ، فخرج المثنى من الحيرة نحوه ، وكانت الغلبة للعرب ؛ وعلم المثنى موقفه وأن لا قدرة له على الذأب فى الجهاد بلا نجدة ؛ فذهب إلى المدينة وبين موقفه إلى أبى بكر — وكان على فراش الموت — فطلب أبو بكر إلى عمر بن الخطاب أن يبعث نجدة إلى بلاد فارس [١].

لما ولى عمر بن الخطاب لم يكن همه إلا العراق ؛ فعقد لأبى عبيد بن مسعود على جيش وأمره بالمسير إلى العراق ، ومعه المثنى بن حارثة ، وعمرو بن حزم ، وسليط بن قيس ؛ فساروا حتى نزلوا النعلبية ، وعقد أبو عبيد الجراح جسراً ، وعبر بمن معه على كره من مشورة سليط والمثنى ؛ وزحف عليهم العجم ، فرشقوهم بالنشاب حتى كثرت فى المسلمين الجراحات ، وقتل فى هذه الموقعة أبو عبيد [٢] ، فرجع الباقون ماربن نحو الجسر ، والمثنى يقاتل من ورائهم لجميعهم حتى عبروا جميعاً ، وعبر المثنى فى آخرهم ، وقطعوا الجسر ، وكتب إلى عمر بما جرى من المحاربة ، وكتب إليه عمر أن يقيم إلى أن يأتيه المدد ، وكانت هذه الموقعة فى رمضان سنة ١٣ هجرية ؛ ثم أرسل عمر بن الخطاب جيشاً وولى عليه جرير بن عبد الله البجلى ، فسار حتى وافى النعلبية ، ثم سار حتى نزل دير هند ، فبلغ ذلك أزرميدخت ملكة العجم ، فأمرت أن ينتدب من مقاتليها اثنا عشر ألف فارس ، فانتدبوا وولت عليهم مهران بن مهرويه عظيم المرازبة ؛ فسار بالجيش حتى وافى الحيرة ، فتقاتل الفريقان وانجلت المعركة عن قتل مهران وانهزام العجم لاحقين بالمدائن ؛ وكانت هذه الوقعة سبب خلع أزرميدخت وتمليك غلام اسمه يزدجرد من عقب كسرى بن هرمز ؛ فاستجاش يزدجرد جنوده من آفاق مملكته [٣] واشغل جيش المسلمين . فكتب المسلمون إلى عمر بن الخطاب بما ينتظرون من أهل السواد ، فلم يصل الكتاب إلى عمر حتى كفر أهل السواد ، من كان له عهد ومن لم يكن له عهد ، وخرج المسلمون من بين العجم . وأرسل عمر بن الخطاب جيشاً إلى العراق ، فى سنة ١٤ بقيادة سعد بن أبى وقاص ، ومات المثنى قبل وصول سعد ، واستخلفه بشير بن الخصاصية ؛ [٤] وكان الآزمرد بن الأزاذبة دعا قابوس بن قابوس بن المنذر وبعثه إلى

(١) ابن الاثير ٢ : ١٧٤ . والاخبار الطوال ١١٢ (٢) ابن العبرى ١٧١ (٣) الطبرى ٤ : ٨١ (٤) ابن الاثير ٢ : ١٨٨ و ١٩٠ .

القادسية ، وقال له ادع العرب فأنت على دين أبيك ، وكن كما كان أباؤك ، فنزل القادسية وكاتب بكر بن وائل بمثل ما كان النعمان يكاتبهم مقاربة ووعيداً ، وأشغل جيش المسلمين ، فجاءه المثنى ابن حارثة الشيبانى ـ أخو المثنى ـ فأنامه ومن معه . (١)

وقتل فى هذه السنة عبد الله بن سنان ، والنعمان بن قبيصة الطائى ـ وهو ابن عم قبيصة ابن إياس الطائى صاحب الحيرة ـ وكان النعمان على رابطة الفرس فى قصر ابن مقاتل (٢) ، وأغار فى هذه المطاوى العرب على الحيرة ، فلاقوا قرب الصنين زفاف أخت أزاد مرد بن آزاذبة مرزبان الحيرة ، إلى صاحب الصنين ، فنهبوهم ونهبوا بنت أزاذبة وغيرها من النساء . (٣)

وفصارى الكلام فقد ثبتت أقدام المسلمين فى الحيرة والكوفة ، وفى سواد العراق بانتصارهم على الفرس فى واقعة القادسية .

وأجلى عمر (رض) من دومة جندل اكيدر الملك السكونى الكندى ـ فيمن أجلى من مخالفى دين الإسلام ـ إلى الحيرة ، فنزل فى موضع منها ، قرب عين التمر ، وبنى به منازل وسماها دومة ، وقيل دوماه باسم حصنه بوادى القرى ، وكان قائماً يعرف فى زمن ياقوت الحموى إلا أنه خراب. (٤)

وروى الواقدى (٥) عن فتح الخورنق ، وقتل النعمان المغرور بن المنذر (٦) وفتح الحيرة والقادسية على يد سعد بن أبى وقاص ما ملخصه : قدم العراق سعد بن أبى وقاص ، فى ثلاثين ألف فارس من بجيلة والنخع وشيبان وربيعة وأخلاط العرب ، وما من قدم العراق منهم إلا بأهله وولده ، فارتحل من الرحبة إلى الحيرة البيضاء ، وكان هناك جيش النعمان بن المنذر ، وقد ضرب خيامه والسرادقات إلى ظاهرها ، وقد أضاف إليه جميع العرب ، وهم من العراق فى ثمانين ألفاً ، وقد أفاض عليهم النعمان النعم والخلع ووعدهم من الملك كسرى بكل جميل ، وقام يخطب فيهم ، فبينما هو كذلك إذ جاء عمه إلياس (٧) وهو صاحب الحرس ، وأخبره بقدوم رسول قائد جيش المسلمين ، وكان هذا الرسول سعد بن أبى عبيد القارىء ، فعرض الرسول إحدى الثلاث : الأسلام ، أو الجزية ، أو الحرب . وبعد المفاوضة أجابه النعمان : ليس بيننا إلا السيف ، فأخبر الرسول سعد بن أبى وقاص بالجواب ، ثم تلاقت جيوش الفريقين واشتد القتال بين جيش سعد وبين جيش النعمان بن المنذر فأصيب

(١) الطبرى ٤ : ٨٨ (٢) ابن الاثير ٢ : ١٩ (٣) الطبرى ٤ : ٩١ (٤) معجم البلدان فى المادة «دومة الجندل»

(٥) فتوح الشام ٢ : ١٢٠ وما بعدها (٦) لا نظن ان النعمان بن المنذر كان فى الحيرة فى هذه الواقعة لانه قتل قبل هذه الواقعة على رواية المؤرخين ، ومن المحتمل أن النعمان بن قبيصة الطائى هو القتيل فى هذه المعركة كما مر بنا نقلا عن الطبرى (٧) هكذا ورد هذا الاسم وربما هو اياس.

النعمان بسنان وتجندل ؛ ولما رآه جنود الحيرة ولوا الإدبار يريدون القادسية نحو جيش الفرس وفيه رستم بن اسفنديار ، واحتوى سعد بن أبي وقاص على قصر الخورنق والسدير ، وترك جميع ما أخذه في الحيرة .

ولما رأى جيش الفرس فلول جيش النعمان ملك العرب ، واستخبروا عن أخذ الخورنق والسدير والحيرة تبلبلوا ، فوقف رستم بينهم خطيباً يشجعهم على القتال ، وأقبل عليه في هذه التضاعيف أبو موسى الأشعري ؛ موفداً من سعد إلى الفرس ، فعرض عليهم الشهادة أو الجزية أو الحرب ، وهرب في ذلك الليل من عساكر الفرس إلى المسلمين ، فطلبهم الفرس فرفض العرب إرجاعهم ، ثم تحاربت جيوش المسلمين والفرس طيلة النهار ، ومنى جيش الفرس بالخسائر والاندحار ؛ وفي وقعة أعقبت ذلك اليوم قتل رستم وانتهت هذه الحرب ، بانتصار المسلمين ، وفتحهم القادسية ، وهرب الفرس إلى المدائن مولين الإدبار ، واستولى الفاتحون على أموالهم .

ولما بعث عمر بن الخطاب إلى سعد بأن يمضي إلى المدائن ، أمره أن يخلف النساء والأولاد في الحيرة ، وعندهم من الجند جماعة ، وأن يجعل لهم شركة في كل مغنم [١] .

ويظهر مما ذكرنا أن ليس لأهل السواد عهد إلا الحيرة وأليس وباقيا ، فلذلك يقال : لا يصح بيع أرض السواد دون الجبل لأنها فيء للمسلمين عامة إلا أراضي بني صلوبا وأرض الحيرة . [٢]

٧ : بقايا اللخميين وملكهم في الإسلام

لم ينحصر مجد اللخميين وملكهم بالحيرة وما والاها من ديار العراق أو ما جاورها من البلاد العربية في الجاهلية كما بينا في تاريخهم ، ولم يندثر عزهم بزوال دولتهم عند الفتح الاسلامي ، بل نرى منهم أمراء في الأندلس وفي الاسلام ؛ قال النويري [٣] : وقد كان للخميين ملك بالحيرة من العراق ، وكان لبقاياهم ملك بأشبيلية من الأندلس ؛ وهي دولة بني العباد ، وأول من ملك منهم القاضي محمد بن اسماعيل بن قريش بن عباد ، وقد ذكر القضاعي في خطط مصر أنهم حضروا فتح مصر ، واختلطوا بهم ، وممن خالطهم جذام ، وقال الحمداني : وبصعيد مصر قوم منهم مساكنهم بالبر الشرقي .

وأورد ابن خلكان [٤] نسب المعتمد صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس كما يأتي : هو المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد بالله أبي عمر

---

(١) الواقدي : فتوح الشام ٢ : ١٢٧ . نبه هنا الى أن روايات المحدثين عن فتح العراق تتباين في تفاصيلها الوقائع باختلاف الرواة ، وقد انتقينا منها ما اعتقدنا أنه أقرب من غيره الى الحقيقة (٢) معجم البلدان : المادة « سوا » (٣) نهاية الارب في معرفة انساب العرب ٣٣٢ (٤) وفيات الاعيان ٢ : ٤٠٩ وما بعدها

وعباد بن الظافر ، المؤيد بالله أبى القاسم محمد قاضى أشبيلية بن أبى الوليد اسماعيل بن قريش ابن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف بن نعيم اللخمى ، من ولد النعمان ابن المنذر ، آخر ملوك الحيرة . وفى المعتمد هذا وفى أبيه يقول أحد الشعراء :

من بنى المنذرين وهو انتساب زاد فى فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالى والمعالى قليلة الأولاد

وكان بدء أمرهم فى بلاد الأندلس أن نعيماً وابنه عطافاً أول من دخل إليها من بلاد المشرق ؛ وهما من أهل العريش ، القرية القديمة الفاصلة بين الشام والديار المصرية ، فى أول الرمل من جهة الشام ، وأقاما فيها مستوطنين بقرية قرب تومين من إقليم طشانة ، من أرض أشبيلية . وامتد لعطاف عمود النسب من الولد ، إلى الظافر محمد بن اسماعيل القاضى ، فهو أول من نبغ منهم فى تلك البلاد وتقدم بأشبيلية إلى أن ولى القضاء بها ؛ فأحسن السياسة فرمقته القلوب ، وولاه الناس عليهم عوضاً عن يحيى بن على بن حمود الحسنى المعروف بالمستعلى فى سنة ٤١٤ هجرية ، وعلى رواية أخرى سنة ٤٢٤ ؛ ولما مات محمد القاضى سنة ٤٣٣ هجرية ، عقبه ابنه عباد ، ومات عباد سنة ٤٦١ ؛ وقام بالمملكة بعده ابنه المعتمد على الله أبو القاسم ، وكان المعتمد هذا يدفع الضريبة للادفونش . وحارب أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ـ صاحب مراكش ـ المعتمد هذا سنة ٤٨٣ هجرية ، وانتصر عليه ، وقتل المأمون بن المعتمد ، الذى كان ينوب عن أبيه فى قرطبة ، وابنه الآخر نائبه فى رنده . وأسر صاحب مراكش المعتمد وقيده وجعله مع أهله فى سفينة ، فتألم المعتمد من قيوده وقال :

تبدلت من ظل عز البنود بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
وقد صار ذاك وذا أدهماً يعض بساقى عض الأسود

وقال ابن لبانة قصيدة فى نكبة المعتمد منها :

تبكى السماء بدمع رائح غادى على البهاليل من أبناء عباد

ومن بقايا اللخميين الأمير ظهير الدين الذى أقامه السلطان نور الدين ـ ملك مصر والشام أميراً على صفح لبنان سنة ٥٥٦ هجرية ـ وفوضه على القنيطرة وبروج صيدا والدامور ، وأمده بالمال والسلاح لمحاربة الأفرنج . ويذكر أن الأمير ظهير الدين هذا من أعقاب أحد أولاد النعمان بن المنذر ، الذى سار بعد قتل أبيه إلى لبنان بقبائل من العرب فثبتت الامارة لأعقابه ؛ ومن تلك السلالة الأمير بدر الدين محمد المتوفى سنة ٧٩٨ هجرية .

هذا آخر ما نعرفه عن سيادة اللخميين وسلطانهم فى مختلف الأدوار ، ومتباين الأقطار ؛ فسبحان من يهب الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، ولله ملك السموات والأرض ؟

[بغداد] يوسف غنيمة